# جوهر الأخلاق في القرآن الكريم



### القرآن نور لمن استضاء به:

قال ا□ عز وجل": (ياَ أَيّهُا النّاَسُ قَد ْ جَاءَكُمْ بُرْهَانُ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلَنْنَا إِلَيَكُمْ وَأَنْزَلَنْنَا إِلَيَكُمْ وَأَنْزَلَنْنَا إِلَيَهُكُمْ وَأَنْزَلَنْنَا إِلَيَهُكُمْ وَأَنْذَا إِلَيَهُ مَنْ اللّاّهَ مُ مَن اللّاّهَ وَلَا عَزْ مِنْ قَائَل: (قَدْ جَاءَكُمْ مَنَ اللّاّهَ مَن اللّاّهَ مَن اللّاّهُ مَن اللّاّهُ مُنْ اللّاّهُ مُنْ اللّاّهُ مَاتَ إِلَى النّاُورِ بِإِذْنَهِ وَيَهُمْ مِنَ الظّالُمُاتِ إِلَى النّاُورِ بِإِذْنَهِ وَيَهُمْ دِيهِمْ إِلَى مِرْاطٍ مُسْتَقَيْمٍ) (المائدة/ 16-15).

عن عليّ (ع): قال رسول ا□ (ص) وهو يصف القرآن ويحث على الالتزام به والاستضاءة بنوره: "فعليكم بالقرآن فإنّه شافع مشفّع، وما حل مصدّق. ومن جعله أمامه قاده إلى الجنّة، ومن جَعَلَه خلفه ساقه ُ إلى النار. وهو الدليل يدلّ على خير سبيل، وهو الفصل ليس بالهزل... فيه مصابيح الهدى ومنار الحكمة".

وعن الحسن بن عليّ (ع) عن رسول ا□ (ص) أنّه قال: "من ابتغى العلم في غيره أضلّه ا□" وعن عليّ (ع) في وصفه للقرآن العظيم: "لا تفنى عجائبه ولا تنقضي غرائبه، ولا تنجلي الشبهات إّلا به".

#### الأخلاق جوهر الشخصية الإنسانية:

قال تعالى: (قُلْ كُلُّ يُعَمْلُ عَلَيَ سَاكَلِلَتِهِ) (الإسراء/ 84).

وعن رسول ا□ (ص): "لو يعلم العبد ما في ح ُسن الخ ُلق لعلم أنّه محتاج أن يكون له خ ُلق حسن".

وعنه (ص) أيضاً: "أوَّل ما يوضع في ميزان العبد يوم القيامة حُسن خُلقه".

وعنه (ص) أيضا ً: "حسن الخلق ذهب بخير الدنيا والآخرة".

وعنه (ص) أيضاً: أشبهكم بي أحسنكم خُلقا".

وعنه (ص) أيضا ً: "أكمل المؤمنين إيمانا ً أحسنهم خـُلقا".

وعن عليّ (ع): "حسن السيرة عنوان حسن السريرة".

وعنه (ع): "حسن الخ ُلق خير قرين أفضل الدين رأس ُ كل ّ بر" و"ما أعطى ا□ سبحانه العبد شيئا ً من خير الدنيا والآخرة إ ّلا بح ُسن خ ُلقه وح ُسن ني ّته".

وعنه (ع): "لا عيش أهنأ من حُسن الخُلق"، "وصول المرء إلى كل ما يبتغيه.. بحسن نيَّته وسعة خُلقه".

وعن الرسول (ص): "الخُلق وعاء الدين"، و"الإسلام حُسن الخُلق". "إنَّما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق".

#### استنتاج:

إذن القرآن أغنى وأصفى ينبوع للمعرفة.

وأهمّ ما يهمّ الإنسان هو مصيره - سعادته وشقاؤه -.

وقد اهتم ّ القرآن العظيم بكل ما يرتبط بمصير الإنسان. فليس لنا إِّلا التوجَّه نحوه واستخراج كنوز معارفه.

وقد لاحظنا — وسنلاحظ أيضا ً — بأن ّ أخلاق الإنسان هي جوره، فمصيره وسعادته وشقاؤه تـَبـَع ٌ لما يكسبه من مـَلكات أخلاقية في حياته الدنيا. فلابد ّ له من اختيار نظام أخلاقي يضمن له سعادته ويعصمه من الانزلاق في هاوية الشقاء.

ولكل ِ نظام أُسس نظرية يبتني عليها، ويستمد ّ قيمته منها.

ومن هنا ينبغي لنا الاهتمام بمعرفة النظرية الأخلاقية الإسلامية أو ّلا ً لأنسّها هي روح النظام الأخلاقي الإلهي حيث نحصل فيها على السر ّ الكامن في أفعال الإنسان وصفاته المؤد ّي إلى اتصاف بعضها بقيمة إيجابية — فتسمسّى بالفضائل والمكارم، واتصاف البعض الآخر بقيمة سلبية فتسمسّى بالرذائل والمساوي والسفاسف — ثم ّ يجدر الدخول إلى تفاصيل النظام الأخلاقي للإسلام.

النظرية الأخلاقية في القرآن الكريم:

المبادئ العامة للأنظمة والنظريات الأخلاقية:

لكل نظرية أخلاقية: مبادئ تنطلق منها وتبتني عليها، وعناصر تتكوَّن منها، ونتائج تترتَّب عليها.

والمبادئ منها ما هو عام، تشترك فيه كلّ النظريات والأنظمة الأخلاقية، ومنها ما تختص به بعض النظريات دون بعض.

والمبادئ العامّة لكل النظريات الأخلاقية هي:

- 1- إن الإنسان كائن حر في سلوكه، فهو مختار متحر ك بالإرادة.
  - 2- لكل إنسان هدف أقصى يسعى إليه في الحياة.
  - 3- للإنسان قدرة على الوصول إلى الكمال اللائق به.
- 4- إنَّ سلوك الإنسان وأفعاله الإراديَّة هي التي تصنع له مصيره النهائي من سعادة أو شقاء.

وكلَّ نظام أخلاقي يتضمَّن دعوة للإنسان إلى تغيير أخلاقه وترشيد سلوكه باتجاه ما يرسمه ذلك النظام الأخلاقي للإنسان من كمالات وفضائل أخلاقية.

وهذه الدعوة تتضمّن الإيمان بقدرة الإنسان على تغيير سلوكه وأخلاقه، كما تتضمن الإيمان بحرّية الإنسان المدعو ّ لتغيير خ ُلقه وصياغة سلوكه. فله أن يسير نحو ما يدعو إليه ذلك النظام وله أن يرفض ذلك.

والتسليم بأنّ الإنسان يفتقد خصالاً وملكات ٍ يـُدعى للوصول إليها معناه أنّ هناك كمالاً للإنسان — بحسب تصوّر ذلك النظام — والإنسان مدعوّ للسعي نحوه واستهدافه في سلوكه وفي جميع تصرّفاته.

فإن ّ كل ّ إنسان بحسب حب ّه لذاته - فطرة ً - يسعى لحفظ ما يملك من كمال بحسب تصو ّره، وينزع إلى ما يفتقده من كمالات - بحسب تصو ّره، وكل ّ هذه الكمالات المتصو ّرة تنتهي إلى كمال نهائي، وتتضم ّن هدفا ً أقصى يرسمه ذلك النظام أو يختاره الإنسان المؤمن بذلك النظام لنفسه بحسب ما يملك من رؤى وقناعات تسبق إيمانه بذلك النظام.

والأنظمة الأخلاقية حينما تدعو الإنسان إلى كسب الفضائل والكمالات تتضمّّن الإيمان بقدرة الإنسان على وصوله إلى تلك الفضائل والكمالات والتحلّي بتلك الملكات اللائقة به بحسب تصوّر تلك الأنظمة الأخلاقية.

كما تتضمّن الإيمان بأنّ الإنسان بسعيه وسلوكه هو الذي يصنع لنفسه مصيره النهائي؛ من سعادة أو شقاء بحسب تصوّره؛ فإنّ الإنسان إذا لم يعتقد بأنّ ما يفعله دخيل في وصوله إلى أهدافه أو هدفه الأقصى الذي يتحرك باتجاهه ِ دائما ً، فليس له أي داع ٍ للتحرّك حينئذ ٍ. لأن حركته اختيارية، والمختارٍ إنّما يختار ما يراه صالحاً لنفسه ولازما ً لتحقّق مصالحه، ولا يختار ما يراه مضرّا ً لنفسه أو لغوا وغير مفيد ولا دخيلا ً في تحقيق مصالحه ومنافعه.

إذن فلكل إنسان هدف أقصى قد اختاره لنفسه في الحياة يسعى نحوه باختياره سعيا ً حثيثا ً دائما ً.

ولا يختلف اثنان في هذا الأصل، إن° اختلفا في مصداق الكمال اللائق بالإنسان والهدف الذي ينبغي الوصول إليه.

كما أنّ كلّ إنسان يؤمن بوجود طريق اختياري في الحياة للوصول إلى ذلك الهدف الأقصى الذي اختاره، وإن اختلفت تصوّرات الأفراد في تشخيص ذلك الطريق الموصل إلى ذلك الكمال المقتنع به.

وهذا الطريق الاختياري هو مجموع التصرُّفات والأفعال الاختيارية التي يعتقد الإنسان بتأثيرها في

تحقيق ما استهدفه في الحياة وجعله لنفسه كمثل ٍ أعلى يسعى إليه.

وهل هذا إلّلا الإيمان من الإنسان — ومن أيّ نظام أخلاقي — بأنّ الإنسان هو الذي يختار مصيره النهائي وهو الذي يصنعه بيديه؟

وهذه هي الأصول الموضوعية والمبادئ العامة لكل نظام أخلاقي، وبالطبع لكل نظرية أخلاقية أيضا ً.

إذن لا خلاف في ابتناء كلّ النظم الأخلاقية — ومنها النظام الأخلاقي الإسلامي — على هذه الأصول الموضوعية العامة وإن اختلفت الأنظمة والرؤى في تشخيص مصداق الكمال النهائي اللائق بالإنسان، وفي تشخيص الطريق الاختياري أو مفردات السلوك البشري الموصلة إلى ذلك الكمال اللائق بالإنسان.

## القرآن وحرية الإرادة:

(وَلَاوَ شَاءَ رَبِّكُ لَآمَنَ مَن ْ فِي الأرْضِ كُلَّبُهِمْ جَمِيعًا أَفَأَن ْتَ تُكَّرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنينَ) (يونس/ 99).

(لا إِ كَ°ر َاه َ فَيِي الد ِ "ين ِ قَد ْ تَبَيَّانَ الرَّاهُ هُدُ م ِنَ الـ ْغَي ِ ") (البقرة/ 256).

(فَمَن° شَاءَ فَلاْيةُؤْمِن° وَمَن° شَاءَ فَلاْيةَك°فُر°) (الكهف/ 29).

(فَا ِن ْ أَع ْرَضُوا فَمَا أَر ْسَلاْنَاكَ عَلَيهْمِهْ حَفيظًا إِن ْ عَلَيهْكَ إِلا الـْبَلاغُ) (الشوري/ 48).

(فَذَكَرِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكَرِّرٌ \* لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ) (الغاشية/ 22-21).

(إِ نِّاَ أَ نِّزَلَاْنِاَ ءَلَيَّكَ الّْكَيِّابَ لِلنَّاَسِ بِالّْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى فَلَينَفْسِهِ. وَمَنْ شَلَّ فَإِ نِّمَا يَصْلَّ ُ عَلَيْهَا وَمَا أَنَّتَ عَلَيْهِمْ بِوَكَيِلٍ) (الزَّمر/ 41).

وهكذا بكلِّ صراحة نرى القرآن الكريم قد فرز حرِّية الإنسان في اعتقاده وسائر اعماله. وتكفينا نظرة سريعة على آيات القرآن لنجده كيف يلقي على الإنسان تبعة اختياره ويحمِّله مسؤولية حرِّيته. وحرِّية العقيدة ليست إِّلا عنصرا ً لا يتجزِّأ من الحرية التامة الكاملة.

ويستعرض القرآن تاريخ البشرية، يفصّل الحديث عمّا لقي الأنبياء في سبيل دعوتهم من تكذيب واضطهاد، وكلّ الأديان مجمعة على أنّه تعالى لو شاء أن يهتدي الناس جميعاً لتمّت مشيئته. لكنه تعالى تعالى تلك الإنسان يحمل مسؤولية هذه الحرية وتبعاتها. وقد تهيأت له وسائل التمييز والهدى مادية ومعنويّة. (إَنّا هَدَيدُناهُ السّّبِيلَ إِمّّا شَاكِرًا و َإِمّّا كَفُورًا) (الإنسان/ 3)، (و َهَد يدْنَاهُ النّّهَ حَدُي ْنِ ) (البلد/ 10)، (و َننَفْسٍ و َما ساوّا اها \* فا السّهس/ 8-7).

فالأنبياء ليس لهم إكراه الناس على الهداية، كما أنّ الشيطان ليس له إكراههم على الضلال والغواية، وقد أفصح عنه تعالى قائلاً: (إِنَّ عَبِادَي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلُاهُانُ إِلَا مَنِ والغواية، وقد أفصح عنه تعالى قائلاً: (إِنَّ عَبَادَي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلُاهُمْ وَيَ اللَّهُمُ إِنَّ السَّيَهُ طَانُ لَمَّاانُ لَمَّا الْمُرْأُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدْ تُكُمُ فَ اللَّهَ وَعَدْ كُمُ وَعَدْ كُمُ وَعَدْ تُكُمُ فَا حَدْ لَكُمُ لَا تَكُمُ وَمَا كَانَ لَيٍ عَلَيْكُمُ وَيَالًا تَلُومُ وَيَ وَلُومُوا عَدْ تُكُمُ فَاسْتَ جَبَعْتُمْ لَيِ فَلَا تَلَّومُ وَنِي وَلَّ وَمُوا أَنَّ فُسُكَمُ مُنْ اللَّهُ مَا لَي فَلَا تَلَّ ومُونَي وَلَّ ومُوا أَنَّ ذَعْ وَاللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ مَا كَانَ لَيْ فَلَا تَلَا ومُونَي وَلَّ ومُوا أَنَّ لَا شَاهُ لَا يَا كَانَ لَا مَا كَانَ لَا مَانُ اللَّهُ الْمَالَا اللَّهُ اللَّا اللَّهُ اللَّهُ الْعُلُولُ اللَّهُ ال

إنّ حرية الإرادة عنصر جوهري في الإنسان، قد أكّده القرآن الكريم بشتّى الأساليب فم ِن° بعث ِ

الأنبياء ِ لهدايته وإرشاده، إلى تبشيرهم وإنذارهم له، إلى وعده بالثواب على الأعمال الصالحة ووعيده له تعالى بالعقاب على معاصيه، إلى تكليفه وتحميله المسؤولية في هذا الحياة، وسؤاله عن أعماله في يوم القيامة، إلى ابتلائه واختباره الدائم في هذه الحياة.

كل هذه الآيات تتضمن إقرار حرِّية الإنسان والإيمان باختياره وقدرته على الانتقاء.

وهكذا آيات العهد والميثاق هي دليل آخر على قدرة الإنسان ليسير على هدى ا□ أو يـُعرض عنه.

والآيات التي تنسب أعمال الإنسان إلى نفس هي صريحة في أنّه هو صاحب العمل الذي يصدر منه: (وَأَنْ لَيَسْ لَلِلِنْسَانِ إِلَا مَا سَعَى \* وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يَبُرَى) (النجم/ 40-39).

(فَمَنْ يَعْمَلُ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُو َمُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ) (الأنبياء/ (94

(الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالـْقَانِتِينَ وَالـْهَنُونِينَ وَالـْمُنـْفِقِينَ وَالـْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْسْحَارِ) (آل عمران/ 17).

وأصرح الآيات هي التي جاءت فيها مشتقات المشيئة أو الإرادة منسوبة للإنسان أنظر قوله تعالى: (فَمَن ْ شَاءَ فَلَاْيةُؤ ْمَن ْ وَمَن ْ شَاءَ فَلاْيةَك ْفُر ْ) (الكهف/ 29).

(لِمَن ° شَاءَ مِن ْكُمُ ° أَن ° يَس ْتَقَيِمَ) (التكوير/ 28).

(وَ مَن ْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَع ْيهَا وَهُو َ مُؤ ْمِن ٌ) (الإسراء/ 19).

(و َم َن ْ ي ُرِد ْ ثَو َاب َ الدِّ ُن ْي َا ن ُؤ ْت َه ِ م ِناْها و َم َن ْ ي ُر ِد ْ ثَو َاب َ الآخ ِر َة ِ ن ُؤ ْت ِه ِ م ِناْهاَ) (آل عمران/ 145).

ويحاول البعض أن يستشهد ببعض الآيات لشبهة الجبر مثل قوله تعالى: (وَ اللَّ َهُ خَلَـَقَكُمْ و َمَا تَعْمَلُونَ ) (الصافات/ 96).

وقوله: (فَإِنَّ َ اللَّهَ يَعُضِلَّ ُ مَن ْ يَشَاء ُ وَيَهِ ْدِي مَن ْ يَشَاء ُ) (فاطر/ 8).

ويكفي لردّ هذه الشبهة ملاحظة الآيات السابقة التي تصرّح بأنّ العمل الصادر من الإنسان هو عمله وأنّه هو المسؤول عنه والمثاب عليه أو المجازى به.

بل هناك آيات جمعت في سياق واحد بين المشيئتين "مشيئة الإنسان ومشيئة ا□ سبحانه" مثل قوله تعالى: (لرِمَن ْ شَاءَ مرِنْكُم ْ أَن ْ يَسْتَقَرِيمَ \* وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَ أَن ْ يَشَاءَ اللَّهَ هُ رَبِّ ُ الدْعَالَمَيِنَ) (التكوير/ 29-28).

فهذه صريحه في أن "الإنسان هو صاحب المشيئة وهو الذي يختار أن يستقيم فيستقيم. وأن "هذه القدرة على الانتقاء إنسّما هي لأجل أن "ا سبحانه أراد له أن يكون بل يصر ّح القرآن الكريم بأن "ا لو شاء أن يهدي الإنسان هداية جبري ّة لأمكن ذلك، ولكنه لم يشأ ذلك، بل شاء أن تكون هدايته للإنسان من خلال إرادته التي اعطاها له ومن خلال الحرية التامة في أن يختار الهداية على الضلال أو الضلال على الهداية. ولهذا جاء بكلمة "لو" فقال: (ف َلمَ و ْ ش َاء َ ل َه َد َ اك ُم ْ أ َج ْ م َع َين َ) (الأنعام/

ومثل هذه الآيات تبيّن لنا قدرة ا□ المطلقة من جهة، كما تبين لنا أنّ ا□ سبحانه قد شاء أن يكون الإنسان حرّااً مختاراً في قبوله للحق أو رفضه له. ولناحظ أيضا ً الآيات التي تقرر أن ّ الإنسان هو الذي يختار ويريد وأن ّ ا□ سبحانه يعامله حسب ما يختار من حرث الدنيا أو حرث الآخرة: (مَن ْ كَانَ يُرِيدُ حَر ْثَ الآخِرَةِ نَزِد ْ لَهُ وَي حَر ْثَهِ وَمَن ْ كَانَ يُرِيدُ حَر ْثَ الدّ ُن ْيَا نُؤ ْتَهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ وَيِ الآخِرَةِ مِن ْ نَصِيبٍ) (الشوري/ 20).

(مَن ْ كَانَ يُرِيدُ الـ ْحَيَاةَ الدُّ نُيْا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيـ ْهِم ْ أَعَمْالَهُم ْ وَ فِيهَا وَهُمْ فَيِهَا لا يُبـ ْخَسُونَ) (هود/ 15).

فالجبر والحتمية في الجزاء والتبعات إنّما يترتّبان بعد ما يختار الإنسان ويتصرّف بحرية تامة، أُنظر قوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّمَ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنهْ سُهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلا مَرَدًّ لَهُ) (الرعد/ 11).

(فَاَحَذَهُمُ اللَّهَ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَورِيَّ شَدَيدُ الْعَقَابِ \* ذَلَكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيَّرًا نَعْمَةً أَنَّعْمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّىَ يَغَيَّرُوا مَا بِأَنَّهُ سُهِمْ) (الأنفال/ 53-52).

(و َماَ ظَلَمَ ْنَاهُم ْ وَلَكَين ْ ظَلَمُوا أَن ْفُسَههُم ْ... \* وَكَذَلَلَكَ أَخَّذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ النَّقُرَى وَهِيَ ظَالَمَة ٌ إِن َّ أَخَّذَه ُ أَلَيِم ٌ شَدِيد ٌ) (هود/ 102-101).

وهكذا ينبغي دراسة المقطع القرآني بشكل كامل لنفهم كيف جعل ا□ سبحانه بحسب حكمته ومشيئته لكل مصير وعاقبة وجزاء سببا ً وطريقا ً يمر من خلال حر ّية وبغير هذه الحرية تنتفي حكمة إرسال الرسل وحكمة التكليف والاختبار وسوف ينتفي قوله تعالى: (فَإِمْ َا يَأْ ْتَيِنَا ّكُمْ ْ مَنِيِّ هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفُ ْ عَلَيْهِمْ ْ وَلا هُمْ ْ يَحْزَنُونَ \* وَاَلا ّنَذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّ بُوا بِإَيَاتِنَا أُولَئَلِكَ أَصْ حَابُ النَّارِ) (البقرة/ 38-38).

(وَ مَا كُنْ َّا مُعَدَ ِ َّبِينَ حَتَّ َّم نَبِّعَثَ رَسُولا) (الإسراء/ 15).

(لا يـُكـَلـِ ّفُ اللَّـَهُ نـَفْ سـًا إِلا و ُسْعـَهـَا) (البقرة/ 285).

(ثُمِّ َ لَـَتُسْأَ لَـُنِّ َ يَو ْمَـٰئَدِدٍ عَن ِ النَّعَيِم ِ) (التكاثر/ 8)

(ليئلًا يَكُونَ ليلنَّاسِ عَلَى اللَّهَ حِجَّةٌ بَعَدَ الرَّسُلِ) (النساء/ 165).

وأخيرا ً فإن ّ حرية الإنسان وقدرته على الانتقاء هي السر ّ في قابلينّة أفعاله للتقييم "بالتحسين والتقبيح" وبدون ذلك لما استحق ّ أحد أن يُلام أو يُدان، ولما أمكن تصو ّر وجود متخلسّف عن القانون على الأرض، ولما ساغت محاكمته ومجازاتته.

المصدر: مجلة رسالة الثقلين/ العدد الثالث السنة الأولى